﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾﴾

[الشّعراء: 160 - 163]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

فصلٌ جديد من فصول تاريخ الأُمم الهالكة متّصلٌ بما قبله

هذه هي القصّة السّادسة في هذه السّورة، سبقتها قصّةُ موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ﷺ، وقدِ اقترنت بقصّة هود وصالح؛ لتشابه الحال والعاقبة، ولعلاقة الجوار المكانيّ، مع التّباعد الزّمنيّ، وممّا يلفتُ النّظرَ أنّها كما جاءت على هذا التّرتيب في القرآن، جاءت هكذا على لسان نبيّ اللّه شعيب ﷺ: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: 89]، كما تتّسق قصة لوطٍ وتنتظم مع السّياق العامّ للسّورة الكريمة؛ حيثُ تقريرُ الأصولِ الثّلاثة: التّوحيد والرّسالة والبعث، كما يتجلى التّناسبُ اللّفظيُّ بينَ القَصَص الخمس: قصّة نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وإبراهيم، كما هو معهود السّورة القرآنيّة، نسيجٌ واحدٌ، ولُحمةٌ واحدةٌ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَوْمُ﴾: أصلُ (قوم) يدلُّ على جماعةِ ناسٍ، ورُبَّما استُعيرَ في غيرهم[1]، والقَوْمُ: جماعة الرِّجال في الأصل دون النِّساء، وفي عامَّة القرآن أريد به الرجال والنِّساء جميعًا[2]، وسُمّوا بذلكَ لأَنَّهم قَوّامونَ على النِّساءِ بالأُمور الَّتي ليس للنِّساءِ أَن يُقِمنَ بها[3]، وقَوْمُ كُلِّ رَجُلٍ: شيعته وعَشيرَتُهُ، والقَوْمُ يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ؛ لأَنَّ أَسماء الجُموعِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(3) ابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).

الَّتي لا واحِدَ لها مِنْ لفظِها إذا كانَتْ للآدميّينَ تُذَكَّرُ وتُؤَنَّثُ، مِثْلَ رَهْطٍ ونَفَرٍ وقَوْمٍ، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ [الأنعام: 66] فذكَّر، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الشعراء: 105] فأَنَّث، والمراد بالقوم في الآية: الجماعةُ العظيمةُ الَّذين يَجمعهم أَمرٌ(1)، ومعنى قوله تعالى: ﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾، أي: جماعتُه الَّذين كان يعيش بينهم، فالنّبيُّ يُرسَلُ لقومه.

2) ﴿أَخُوهُمْ﴾: أصل الكلمة من الآخيَةِ، وهي عُروةٌ تُثَبَّتُ في أرض أو حائط، وتُربَطُ فيها الدّابّة، يُقال: له عندي آخيَةٌ، أي: متانةٌ قويّةٌ، ووسيلةٌ قريبة، وآخى فلانًا مُؤاخاةً وإخاءً: اتَّخذه أخًا، وآخى بينهما: جعلهما كالأخَوَين، والأَخُ مِنَ النّسَب: مَعْروفٌ، وهو الأخ الشّقيق أو لأب أو لأمّ، ويشمل أخا الرّضاعة(2)، ويُستَعارُ في كلِّ مُشارِكٍ لغيره في القَبيلة، أو في الدّين، أو في صَنعةٍ، أو في مُعاملةٍ أو في مَودَّةٍ، وفي غَير ذَلك مِنَ المناسبات(3)، والأخوةُ إذا كانت في غير الولادةِ كانت للمشكلة والاجتماع في الفعل، كقولك: هذا الثّوب أخو هذا الثّوب أي يشبهه، وكقوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: 27]، أي مُشاكلوهم(4)، والمراد بالأخ في الآية: المشارك للآخرين في المكان، إذ جعل الله تعالى لوطًا أَخًا لقَومِه ولم يكن من نسبهم وإنَّما كان نزيلًا فيهم، فقد كان قومُ لوطٍ من أهل فلسطينَ من الكنعانيّينَ، وكان لوطٌ عِبرانيًّا(5).

3) ﴿أَمِينٌ﴾: أصلُ (أمن) أَصلانِ مُتقاربان: الأمانةُ الَّتي هي ضدُّ الخيانة، ومعناها سكونُ القَلْبِ، والآخرُ التَّصديقُ(6)، والعَرَبُ تَقولُ: رَجُلٌ أُمّانٌ: إذا كانَ أَمينًا، والأَمينُ: القويُّ لأَنه يوثَقُ بقوَّتِه(7)، والرَّسولَ لا يُبعَثُ إلّا وقد كانَ معروفًا بالصِّدقِ وحُسْنِ الخلُقِ قَبْلَ الرِّسالة(8)، والمقصود بالأمين في الآية: فعيلٌ إمّا بمعنى مفعولٍ، أَيْ مأمونٌ مِنْ أَمنه على كذا، وإمّا صِفةٌ مُشبَّهةٌ من أَمُنَ بضمِّ الميم إذا صارتِ الأمانةُ سجيَّته، وكِلا المعنيين جائز في هذا المقام(9).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 208.
(2) الرّاغب، المفردات: (أخ)، والمناوي، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 41.
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أخ).
(4) السجستاني، غريب القرآن، ص: 146، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 212.
(5) السجستاني، غريب القرآن، ص: 146، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 212.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 178.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 157.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من كذَّبَ برسولٍ فـإنَّـمـا كـذَّب بـجـمـيـع رسـل الله

تُبيِّن الآياتُ الكريمة حالَ قومِ لوطٍ بتكذيبهم لدعوته – وهي دعوة كلّ المرسلين ﷺ – وذلك حين دعاهم، وكان مُصاهِرًا لهم، مُقيمًا بينهم، مُشفقًا عليهم، فرَغّبَهم واستَحثَّهم على تقوى الله؛ بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن يُعَظِّموا اللّهَ ويخافوه، وقد أكَّد لهم أنّه مرسلٌ من ربّهم، أمينٌ على الوحي، وأمينٌ عليهم، وناصِحٌ لهم، وكلُّه حِرْصٌ على صلاحهم، ولمّا كان الأمر كذلك؛ فتَوجّبَ عليهم أن يتّقوا اللّهَ وحْدَه، ويَتّبِعوا رسولَه، ويمتثلوا له.

وتُرشِدُ الآياتُ الكريمةُ إلى جواز إطلاق الأُخوَّة على البلد والسُّكنى والوطن دونَ الدّين والنَّسب، وإلى أنَّ الأمانةَ من مستلزمات الرّسالة؛ إذ كلّ رسولٍ يقول لقومه المُرسَل إليهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، وأنَّ سبيلَ نجاةِ الفَرد والجماعة في تقوى الله تعالى وطاعةِ الرّسول ﷺ ، وإلى وجوب إنكارِ المُنكر وتقبيحه على فاعله لعلّه يرعوي[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الجملة عمّا سبقها:

تشابهُ الحال يُفضي إلى تشابه المآل

فُصِلت جملة: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها جملةٌ مستأنَفة، فهي بدايةُ قصّةٍ أخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وفصلٌ جديد من فصول تاريخ الأُمم الهالكة، فيها تسليةُ قلبِ نبيّ اللهِ ﷺ، وتثبيتُ فؤادِه، فناسبَ الفصلُ.

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ التّكذيب:

مبادرةُ قومِ لوطٍ بتكذيبه دونَ تفكّرٍ ونظرٍ

ذِكْرُ التّكذيب الصّريح في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ لأنّهم كذّبوا رُسلَ اللهِ جميعًا، بتكذيبهم بنبيّ الله لوطٍ، وكفرِهم

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 675.

بما جاء به، وقد فصَّلت الآياتُ بعدَها ما أَجملتْهُ هذه الآية، فلِقَصْدِ التّسلية عبّر بالتّكذيب، فحين ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ لم يتأنّوا بطلب دليل، ولا ابتغاء وجهٍ جميلٍ، وأشار إلى زيادة التّسلية بمفاجأتهم بالتّكذيب من غير تأمُّل ولا توقُّف؛ كحال كفّار قريش[1]، وناسبَ التّصريحُ بالتّكذيب ما ورد في أول السورة: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾ [الشّعراء: 6]، فإنّ ما بعدها تفصيلٌ لما أجملته هذه الآيةُ الكريمة؛ تثبيتًا لقلب نبيِّنا ﷺ وتسريةً له، وقد قال له ربُّ العالَمين، كما في مطلَع السّورة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشّعراء: 3].

لطيفةُ تأنيثِ الفعل للفاعل المذّكر:

شناعةُ التّكذيب وذمّه

أُنِّثَ فعلُ ﴿كَذَّبَتْ﴾، فلم يقل: (كذّب)؛ لأنّ القوم يُذكَّر ويُؤنَّث، فهو من أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها، كرهط ونفر، وأغلب ورودِ الفعل (كذّب) في القرآن مع (قوم) بتاء التّأنيث، وقد ورد فعل التّكذيب بغير تاء التّأنيث، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ [الأنعام: 66][2]، وذلك لأنَّه أُضيف إلى ضمير المخاطَب، وقيل: القوم بمعنى الجماعة والأُمَّة[3]، فناسبَ إلحاقَ تاءِ التّأنيث بالفعل، باعتبار الفاعل مؤنثًا، وأضاف الشّربينيّ: "واختير التّأنيث ها هنا للتّنبيه على أنّ فعلهم أخسُّ الأفعال"[4]، وذلك باعتبار تنزيلهم منزلةَ العجماوات.

معنى الإضافة ودلالتُها في: ﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾:

إنّما يُعرف الخسيس بالشَّريف

أُضيف لفظُ ﴿قَوْمُ﴾ إلى لوط ﷺ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾؛ للتّعريف؛ لأنَّ ﴿قَوْمُ﴾ مبهَمٌ، و﴿لُوطٍ﴾ علَمٌ معروف، وقد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 61، 73.
(2) الهمذانيّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 60.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 254.
(4) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 23، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 175، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 156.

نُسبوا إليه كذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾ [ق: 12 - 13]، ففيه تصريحٌ إلى أنَّه مرسلٌ إليهم؛ لأنَّهم قومُه باعتبار تكليفه بتبليغهم الرّسالةَ، وقد عُرِفوا به ﷺ، ولولاه لطمسهم التّاريخ، واندرس أمرُهم.

فائدة التّعبير باسمِ المفعول:

إذا كان تكذيبُ الصّادقين ظُلمًا وجهلًا، فكيف التّكذيب بمَن أرسله الله! ممن اصطفاهم الله برسالاته، واختارهم لصدقهم وأمانتهم! من هنا كانت نُكْتَةُ التّعبير باسم المفعول للفظ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهو زيادة التّشنيع على المُكذِّبين؛ فإنَّ تكذيبَهم وقع على مَن أرسله الله تعالى تحقيقًا، لا على منِ افترى من تلقاء نفسه، فهم مرسلون من قِبَل الله، معروفون بالصّدق والأمانة، فلا يصِحُّ تكذيبُهم بحال، وأنّ تكذيبهم تكذيبٌ لمَن أرسلهم ﷺ، وكيف يكذِّبونهم وقد شهدوا لهم بالصّدق قبلَ مبعثهم؟ مع أنَّ الأولى تصديقُهم بعد الرّسالة.

تكذيبُ الصّادقين ظُلمٌ عظيمٌ، وأشنع منه التّكذيب برُسل الله!

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبير بصيغة الجمع ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دونَ الإفراد، كأن يُقال: (كذبت قومُ لوط رسولَهم) ونحوه، وذلك أنَّ تكذيبهم بنبيٍّ الله لوط تكذيبٌ بجميع المرسلين؛ إذ دعوتُهم واحدة، والمُرْسِلُ سبحانه واحد، والمُعْتَقَد واحد، والمقصد واحد، فمن كذّب برسول فقد كذّب بسائر الرّسل، ففيه منَ التّشنيع ما لا يوجد في الإفراد.

التّكذيبُ برسولٍ تكذيبٌ لسائر الرّسل!

نُكْتَةُ فصلِ الجملة عمّا قبلَها:

الفصلُ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لكمال الاتّصال بينَ الجُملتين، إذِ الثّانيةُ مبيّنة للأولى، من باب التّفصيل بعد الإجمال، ومؤكِّدةٌ لها، أو مُعلِّلةٌ؛ باعتبار إفادة ﴿إِذْ﴾ معنى التّعليل؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزّخرف: 39]؛ أي: لأجل ظلمكم في الدّنيا.

التّفصيلُ بعدَ الإجمال بيانٌ وتوكيدٌ

بلاغة استعمال الظّرف ﴿إِذْ﴾ ودلالتُه:

تصويرُ الماضي القديم من خصائص إعجاز القرآن الكريم

أداةُ ﴿إِذْ﴾ ظرفيَّةٌ، والعاملُ فيها ﴿كَذَّبَتْ﴾، فهي ظرفٌ زمانيٌّ، تدخلُ غالبًا على الفعل الماضي، فتنقلُ السّامعَ إلى حدثٍ مضى، وقد تدخل على المضارع، لاستحضار الحَدَث، كما تدخل على الاسم، وقد اجتمع دخولُها في ذلك كلِّه في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التّوبة: 40]، فهي ظرفٌ لفعل التّكذيب على أنَّه عبارة عن زمان مديد وقع فيه ما وقع من الجانبين إلى تمام الأمر، كما أنَّ تكذيبهم عبارةٌ عمّا صدر منهم من حين ابتداء دعوته ﷺ إلى انتهائها، وهي كذلك للتّعليل، أي: كذَّبوا لأجل أن قال لهم أخوهم لوط[1].

لطيفةٌ في ذِكر لفظ ﴿قَالَ﴾:

الدَّعوةُ كانت شِفاهًا، والتّكذيبُ وقع على ما في حيّز القول

جاء التَّعبيرُ بفعل القول في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لبيان أنهم كذَّبوا بقوله الذي سمعوه وأدركوه، إذ خاطبهم ودعاهم، فالدَّعوةُ شِفاهًا، والتّكذيبُ وقع على ما في حيّز القول.

معنى اللّام في الجارّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾، ودلالةُ تقديمها:

من رحمةِ الله تعالى تخصيصُ رسولٍ لكلّ قومٍ

اللّام في ﴿لَهُمْ﴾ لامُ الصّلة بينَ الفعل ومفعوله، فالفعل ﴿قَالَ﴾، ومفعوله من وُجِّهَ لهم القولُ، وغرضُها: تعديَةُ اللّازم لمفعوله، وفي اللّام تخصيصٌ للقول بأنّه لهم؛ اعتناءً بهم وإشفاقًا عليهم، وقُدّم الجارّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ على الفاعل ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ هذا القول لهم خاصّةً، فدعوتُه قاصرة عليهم، فكلّ نبيٍّ كان يُبعَث في قومه، وفيه اعتناءٌ بهم، وحِرصٌ على هدايتهم.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الأُخوَّة:

المُصاهرة والمجاورة من مظاهر الأُخوَّة

آثَرَ النّظمُ الكريم استعمالَ لفظِ: ﴿أَخُوهُمْ﴾ دون (رسولهم)، ومعنى ﴿أَخُوهُمْ﴾ أي: في البلد والسّكنى والتّجاور في القرية، لا في

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 104.

الدّين والنسب؛ لأنَّه ابنُ أخي إبراهيمَ ﷺ، وهما من أرض بابل في العراق، وجَعْلُ لوطٍ ﷺ أخًا لقومه ولم يكن منهم؛ لاستيطانه بلادَهم ومصاهرتهم، وقال تعالى: ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾ [ق: 13]؛ فدلَّ التّعبيرُ بالأُخوّة على محبَّتِه لهم، وإشفاقِه عليهم، فالأُخوّة هي أُخوّة الدّمِ التي تضمّ الجميعَ مؤمنهم وكافرَهم، قريبَهم وبعيدَهم، وفيها ما يدلُّ على إشفاقه عليهم، شفقةَ الأخِ على أخيه[1]، وممّا يدلُّ على أنَّه تزوّج منهم، كونُ زوجتِه على شاكلتهم، وتميل إليهم.

معنى الإضافةِ وفائدتُها:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿أَخُوهُمْ﴾ تُفيد معنى التّعريف، فهو أخوهم في البلد والسكنى والمجاورة، وليس بأخيهم في الدّين والنّسب، ونظيرها: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾ [ق: 12 - 13].

الإضافة إلى المعرفة تُفيد التّعريف

نُكْتَةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

أُظهر لفظ ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ بعد ذكره في الآية السّابقة: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ فلم يقل: (إذ قال لهم ألا تتقون) اكتفاءً بسبق ذكره؛ لتأكيد أُخوّته لهم، التي تَنُمُّ عن حرصه وإشفاقه عليهم، ونُصْحه لهم، لما بينهم من وشيجةٍ قوية، ورابطةٍ متينةٍ، ولأنَّ الحبيب يستلذُّ بذِكْر حبيبِه، والأنبياءُ أحبُّ النّاس إلى الله، فتكرَّرَ ذِكْرُهم بأسمائهم دونَ التّكنية بالضّمير.

محبّةُ اللهِ لأنبيائه، وتشريفُهم بتكرار ذكرهم في أعظم كتبه

معنى ﴿أَلَا﴾ وبلاغةُ استعمالِها:

﴿أَلَا﴾: أداةُ استفتاح وتنبيه وتشويق، جاءت في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وفيها معنى التّحضيضِ، وهي تصويرُ أسلوبِ نبيّ الله لوطٍ في ترغيب قومه؛ لأنّه يدعوهم إلى الخير العظيم، ولعلّه دعاهم قبلَ ذلك فلم يستجيبوا، فاستحثّهم بعد ذلك ورغّبهم، ويجوز أن

روعةُ الاستفتاحِ وجمالُ التّشويق ومعنى التّحضيض

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أخ).

يكون لفظُ ﴿أَلَا﴾ مُركّبًا من حرفين؛ همزةِ استفهام دخلت على (لا) النّافية، فهو استفهامٌ عنِ انتفاء تقواهم، مستعملٌ في الإنكار، وهو يقتضي امتناعَهم منِ الامتثال لدعوته[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردة التّقوى:

زجرٌ لهم عنِ الذّنوب والمعاصي، وترقيقُ قلوبِهم لقَبول دعوتِه

جاء استعمالُ مفردة التّقوى في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ دون حَثّهم على العبادة، أو الإسلام، أو الإيمان، ونحوِ ذلك؛ لأنَّ التّقوى هي الأصل القلبيّ المُحرّك للعمل، وقد تكون سابقةً للإيمان الصّحيح، والتّقوى نوعان؛ تقوى ناشئةٌ عنِ الإيمان، وهذه أنفعُ أنواعِ التّقوى، وتقوى ناشئةٌ عنِ القلب الفِطريّ - وإن كان صاحبه غيرَ مؤمن -، ففي ذِكْر التّقوى على هذا زجرٌ لهم عنِ الذّنوب والمعاصي، وترقيقُ قلوبِهم لقَبول ما جاءهم به، ودعوةٌ إلى الإيمان الذي هو أساسُ التّقوى ومَبعثُها.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بصيغة المضارع:

حرصُ المرسلين على أتْباعِهم ممتدٌّ مستدام

دلّت صيغةُ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ على طلب التّقوى في الحال والاستقبال، في أن يمتثل المخاطَبُ حالًا لتقوى اللّه تعالى، وأن يستمرّ عليها مستقبلًا، فليس المطلوبُ تحصيلَ التّقوى في لحظة الخطاب فحسب، بل المطلوبُ الاستمرارَ عليها، معَ اتّساقها مع دلالة ﴿أَلَا﴾ التّحضيضيّة، في الدّلالة على المستقبل.

عِلّةُ الفصلِ بينَ الجملة وما قبلها:

خطابُ الأنبياء لقومهم، خطابُ العقلِ والوجدان

فُصِلَت جملة: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ عمّا قبلها؛ لما بينهما من شِبه كمال الاتّصال، فهي مستأنَفَة استئنافًا بيانيًّا، تُجيب عن سؤال يتبادَر إلى الذِّهن، صدر عن قومه: وما شأنُكَ أنتَ يا لوط؟ ومَن الذي كلّفكَ بنُصْحِنا؟ وماذا تريد من ورائه؟ فقال: ﴿إِنِّي لَكُمْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.

﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تعليلٌ لحضّهم على تقوى الله، وجوابٌ عمّا قد يجيش في صدورهم.

غرضُ التّوكيد وفائدتُه:

التّجارِبُ السّابقة خيرُ دليلٍ على صدق الوعود القادمة

أكّد الخبرُ في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ ليقطعَ الطّريق أمامَ شكوكِهم، وليُقَرّر لهم أنّه على بيّنة من أمره، ويقينٍ برسالته، لما قد تَوَقَّعَه من بادرة الإنكار، "فاستدلَّ عليهم بتجربة أمانتِه قبلَ تبليغ الرّسالة، فإنّ الأمانة دليلٌ على صدقه فيما بلّغَهم من رسالة الله"[1].

معنى اللّام ونُكْتَةُ تقديمِ الجارّ والمجرور على الخبر:

أَحْرَصُ الخَلْقِ على الخَلْقِ رسلُ الحقِّ

اللّام الدّاخلة على الضّمير في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ للتّخصيص، أي: لكم لا لغيركم، فدعوةُ كلِّ نبيٍّ خاصّة بقومه، وفي هذا مزيدُ اعتناء بهم، وحرصٌ عليهم، وترغيبٌ لهم في الاستجابة والامتثال، وقُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على الخبر ﴿رَسُولٌ﴾؛ للاعتناء بهم، وللاهتمام بشأنهم، وفيه منَ التّشويق للمُتأخّر، والمعنى: (إنّي من أجلكم رسولٌ مُؤتَمَنٌ عليكم، ناصحٌ لكم، أمينٌ على رسالة ربّي).

بلاغةُ استعمالِ مفردة الرّسالة:

وظيفةُ الرّسولِ تبليغُ رسالةِ الحقِّ

جاء استعمالُ مفردة الرّسالة دونَ النُّبوّة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ لأنّ المقصود بسياقِ الكلام بيانُ أنّه مرسلٌ إليهم، ومعنى أنّه مرسلٌ من ربّ العالَمين أنَّ الله أنبأَهُ، فلمّا كان المقامُ مقامَ تبليغ ناسبَ ذِكْرَ الرّسول، فالرَّسولُ هو الذي يأتي برسالةٍ منَ الله تعالى؛ لتحذير النّاس منَ الباطل الذي هم فيه، واتّباعِ الحقّ المبعوثِ به.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿رَسُولٌ﴾:

تعظيمُ قَدْرِ رسالةِ الرّسول

نُكِّر لفظُ ﴿رَسُولٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.

لتعظيم قدرِ الرّسالة، ليُقدِّروها قَدْرَها، ويَعرِفوا فضلَها، ويمتثلوا لها، فهو رسول ربِّ العالمين.

دلالةُ إيثارِ صفةِ الأمانة في وصف الرّسول:

أمـانـةُ الـرّسـل مـنَ المُسَلَّمات الـعـقـلـيَّـة الـسّـلـوكـيّـة في إثبات صِدقهم

جاء استعمالُ صفةِ الأمانة في وصف الرّسول ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ لأنَّ الأمانةَ من أهمّ صفاتِ الرّسل، وما من نَبيّ إلّا عُرِفَ بين قومِه قبلَ دعوتِه بالصِّدق والأمانة، فالأمانةُ صفةٌ جامعة، والرَّسولُ أمينٌ في قوله، وأمينٌ في فعله، وأمينٌ في سِرّه، وأمين في علانيّته، وأمينٌ على الوحي فلا يَكْتُمه، وأمينٌ على قومه فلا يَكْذِبُهم ولا يخونُهم، مع ما في هذا الوصف من التّعريض بهم؛ لأنّهم ركبوا متنَ الخيانةِ والتّنكُّرِ لدعوته، ولو كانوا أمناءَ لكان الرّسولُ منهم.

وجهُ التّعبيرِ بصيغة (فعيل) وتنكيرُها:

أمـانـةُ الـرُّسـلِ أمانةٌ خاصَّةٌ في قـدرها ونوعها ووظيفتها

دلَّت صيغةُ (فعيل) وهي من صيغ المبالغة في مفردة ﴿أَمِينٌ﴾، على أنّه بالغٌ الأمانةِ، فهو ليس مُجرَّد أمينٍ من أمناء النّاس، بل هو ممَّن امتاز بهذه الصّفة، ونُكِّر الوصف ﴿أَمِينٌ﴾؛ متابعةً لتنكير الموصوف، فلمّا جاء نكرةً جاءت صفتُه نكرةً، مع ما فيها من المبالغة في وصفه بالأمانة؛ لأنّ النّكرة تُفيد التّعظيم في مثل هذا السّياق.

نوعُ (الفاء) ومعناها:

الفاء فصيحةٌ؛ لـترتـيـب الأمـر بـالـتّـقـوى على كـونـه رسـولًا أمينًا

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ هي الفاء الفصيحة عن شرطٍ مُقَدّر، يدلُّ عليه ما بعدَ الفاء، والمعنى: (فإذا كنتُ أمينًا مُتجرّدًا لله في دعوتي مُخلِصًا، لا أبتغي منكم أجرًا، فعليكم أن تمتثلوا لأوامري، وتتَّقوا اللّهَ خالقي، وتطيعوا أمري، وأنا رسولٌ لكم، أمينٌ عندكم)[1]، أو هي لتفريع الأمر بالتّقوى، فما دام رسولًا أمينًا، فيتفرّع عن ذلك الأمرُ بالتَّقوى.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 175، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5378.

دلالةُ تكرارِ مفردة التّقوى:

جاء استعمال مفردةُ التّقوى في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مع تقدُّم الأمرِ بالتّقوى في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ تقوى الله جماعُ كلِّ خير، وأصلُ كلِّ برٍّ، وهي بُرهان الإيمان وثمرتُه، والبدايةُ بها ممّا اتّفقت عليه الرّسالاتُ، والتّقوى نذارةٌ، والنّذارةُ أوّلًا ثمّ البشارةُ لَمن هو أهلٌ لها، فبعدَ أن حضَّهم على التَّقوى تمهيدًا، حَسُنَ ذكرها أمرًا تأصيلًا.

الحضُّ على التّقوى تمهيدًا، مُقدّمةٌ للأمر بها تأصيلًا

غرض الأمرِ ودلالتُه:

أَمَر نبيُّ الله لوطٍ ﷺ قومَه بتقوى الله تعالى بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وغرضُ الأمرِ الإلزامُ العقديّ، والتّوبيخ على تركه، وجاء الخطاب للجميع ﴿فَٱتَّقُواْ﴾؛ لأنَّ الرّسالة للجميع لا يختصُّ بها طائفةٌ دونَ أخرى.

الإلزامُ العقديّ، والتّوبيخ على ترك الأمر

مناسبةُ استعمالِ لفظِ الجلالة:

إيثارُ عنوانِ الأُلوهيّة في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للتّعظيم والمهابة والجلال، فالمقام مقام أمرٍ بالتّقوى وتركِ المُحرّمات والفواحشِ، فناسبَه لفظُ الجلالة؛ لإدخال الرَّوعة والرّهبة في القلوب.

دلالةُ عطفِ الأمر بالطاعة:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ للعطف، والعطف يقتضي المشاركة في الحُكم، فقد أَمرَهم أن يجمعوا بين تقوى الله وبين طاعته؛ وذلك لأنَّ طاعةَ الرّسول من طاعة المُرْسِل ﷻ، فأَمَر بطاعتِه بعد الأمرِ بتقوى الله؛ ليجمعَ بين حَقّ المُرْسِل ﷻ، وحَقّ المُرْسَل ﷺ، ولكون الرّسول جاء برسالة، فلَزِم قومُه اتّباعَه وطاعتَه.

دعوةُ الرّسل تتلخّص في الأمر بتقوى المُرْسِل، وطاعةِ الرّسول

عِلّةُ تقديمِ الأمر بالتّقوى على الأمر بالطّاعة:

قُدِّم ذِكْرُ الأمرِ بتقوى الله تعالى على الأمر بطاعته في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ لأنَّ تقوى الله عِلّةٌ لطاعته، فقَدَّم العِلّة على المعلول[1]، فإذا حصَّل الإنسانُ تقوى الخالقِ سبحانه،

أعمالُ القلوبِ مُقدَّمةٌ على أعمالِ الأبدان

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 521.

أطاعَ المُرْسَلين، فالتّقوى - وهي عملُ القُلوب - أصلٌ للطّاعة - وهي عملُ الأبدان، فمَن صحَّ قلبُه قُبِلَت أعمالُه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأهلُ والعشيرة والقوم:

الأهل أخصُّ الألفاظِ، والعشيرة أوسعُ دلالةً، والقوم أعمُّها

أهلُ الرّجل قرابتُه الأَدْنَون، وأهلُ بيتِه زوجتُه وأبناؤه، والأهلُ كذلك الأصحابُ، ومنه: أهلُ الجنّة، وأهلُ العِلْم، أي: مِن اختَصّ به، وأهلُ القرآن؛ لأنّهم خاصَّتُه، ومنه أهلُ الفضل وأهلُ الإحسان، وأهلُ التَّقوى؛ لمُلازمتهم هذه الصّفات والأحوالِ، وأهلُ الدّار، وأهلُ كلّ بلدةٍ: ساكنوها.

والعشيرة هم الأهلُ ومَن يليهم من أقاربه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ [التّوبة: 24]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشّعراء: 214]، والعشيرة آلُ الرّجل، فتشمل قرابتَه القريبةَ والبعيدةَ، وسُمّيَتِ العشيرةُ لكثرتهم، كأنّهم يفوقون العَشَرة، أو لترابطهم وتشابكهم، كتعاقد العشرة، أو لما بينَهم من حُسْن العِشْرة، والمؤانسة.

والقوم دائرةٌ أوسع، تنضوي تحتَها العشائرُ، والقومُ: من يجمعُهم وطنٌ واحدٌ، أو هويّةٌ، أو لغةٌ، أو عِرْقٌ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزّخرف: 44]، فالقومُ يشمل قريشًا لأنّهم قومُه، كما يشمل سائرَ العربِ لأنّ القرآن نزل بلغَتهم، وهم مَن بَلَّغَه، وسُمّي القومُ؛ لأنّهم يقومون لنُصْرَة بعضِهم بعضًا، وينهضُ بعضُهم لمساعدة بعضٍ[1]، وقولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾: عبّر برابطة القوم لأنّها الدّائرةُ الأوسعُ، التي ينضوي تحتَها الجميعُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 84، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/ 265.

التّقوى، والخشيَة، والخَوف:

التّقوى امتثالٌ ناشئٌ عنِ الخوف منَ اللّه تعالى، والخَوفُ: أعمُّ منَ الخشية؛ لأنّه قد يكون عن علمٍ أو لغير علم، أمّا الخشيةُ: فخوفٌ مقرونٌ بمعرفة، قال النّبيُّ ﷺ: «إنّي أتقاكم اللّه وأشدّكم له خشية»[1]، وعلى قَدْر العِلْم والمعرفة تكون الخشية.

التّقوى امتثالٌ ناشئٌ عن خوفٍ منَ الله، والخوفُ أعمُّ منَ الخشيَة

والخشيةُ أشدّ منَ الخوف؛ لأنّها مأخوذة من قولهم: شجرة خاشية، أي: يابسة، وهو فواتٌ بالكلّيّة، والخوفُ النّقصُ مطلقًا، من قولهم: ناقةٌ خَوفاء، أي: بها داءٌ، وهوَ نقص وليس بفوات، ولذلك خُصَّتِ الخشيةُ باللّه في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الرعد: 21]، والخشيةُ تكون من عِظَمِ المَخشيّ، وإن كان الخاشي قويًّا، والخوفُ يكون من ضعف الخائف، وإن كان المَخوف أمرًا يسيرًا، وأيضا فإنّ أصل الخشية خوفٌ مع تعظيم؛ ولذلك خُصّ بها العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28][2].

الطّاعة والعِبادة:

الطّاعةُ تقابلُها المعصيةُ، والطّاعةُ الحَقَّة قد تكون للّه ولغيره، كطاعة الرّسول ﷺ وطاعةِ أولي الأمر، والوالدين وأهلِ العِلْم، وطاعةِ الزّوجةِ لزوجها، والطّاعة: هي الاتّباع والامتثالُ للأوامر، والاجتنابُ للنّواهي.

العبادةُ لله وحدَه، والطّاعةُ له سبحانه ولكلّ مَن أمر بطاعتِهم

أمّا العبادةُ الحقَّةُ، فإنّها لا تكون إلّا للّه تعالى، وجميعُ الأنبياء دَعَوا لعبادة اللّه، كما دَعَوا لطاعتِهم، فهم مُبَلّغون عنِ اللّه تعالى، والعبادةُ اسمٌ جامعٌ لكلّ ما يُحبُّه اللّه ويرضاه منَ الأقوال والأفعال،

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (6101) و (7301)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (128)، (2356).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 428، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 544 - 546، والسّيوطيّ، الإتقان: 2/ 363، وأحمد ياسوف، جماليّات المفردة القرآنيّة، ص: 293.

الظّاهرة والباطنة، بمفهومِها العامّ، وبمفهومها الخاصّ، والعبادات الصّلاةُ والصّيام والزّكاة والحَجّ والذّكرُ والدّعاء.

فالطّاعةُ أعمُّ منَ العبادة؛ لأنّ العبادة غلبَ استعمالُها في تعظيم الله غايةَ التّعظيم[1].

التّقوى والطّاعة:

التّقوى تنصرف لله تعالى، فهو المُستَحِقُّ لها، وهي أمرٌ قلبيٌّ ينتجُ عنه امتثالُ المأمورات واجتنابُ المنهيّات، فهي الحافِزُ والدّاعي إلى الطّاعة.

التّقوى خاصَّةٌ بالله تعالى، والطّاعة عامَّةٌ فيمَن أوجبَ اللهُ طاعتَهم

أمّا الطّاعة: فهي لله ولكلّ من أمر الله وأذن بطاعته، كالرّسل، وأولي الأمر، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النّساء: 59]، فالطّاعة: "الانقياد لمطلوب الشّارع بما أمر به، واجبًا كان أم مستحبًّا، والتّقوى: كَفُّ النّفسِ عمّا نهى الشّارعُ عنه؛ حرامًا كان أم مكروهًا"[2].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 583.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 137.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»